

التصوير الفني في الآيات القرآنية

{ دراسة بلاغية في بعض الآيات القرآنية }

بقلم : فيصل مبارك سيف¹

الخلاصة

تبحث الدراسة الحالية في الآيات القرآنية من الناحية البلاغية التي تقوم أساسا على افتراض الأصل للوقوف على مظاهر الإعجاز لكتاب الله عز وجل، وتبحث هذه الدراسة حول إعجاز القرآن حيث عجز فيه العرب عن الإتيان بسورة مثله، والبلاغة هي إحدى العلوم الهامة التي تستخدم لخدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدى به الإنس والجن وأنها ذات علاقة مهمة في تذوق روائع البيان لأسلوب القرآن وفصاحته.

التعبيرات الأساسية : التصوير الفني - بلاغية - القرآن.

¹. محاضر في كلية التربية بجامعة أنتساري الإسلامية الحكومية بنجرماسين.

التمهيد

القرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه، وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، وقد تحدى محمد رسول الله النبي الأمي العرب بإعجازه، وحكى لهم عن ربهم القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، وجتثاث نبتته، ونقل جميع المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضا.

وكنا قد عرفنا أن العرب في فترة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أصحاب الكلمات يتلاعبون بهما كيفما يشاؤون في أسلوب ممتاز رائع نثرا كان أو شعرا لأن هذا يتمشى مع قاعدة نزول المعجزات للرسل السابقين عليهم السلام ، وهي المعجزة فيما تفوق القوم فيه، كموس عليه السلام،

و كان قومه بارعين في السحر فمعجزة موسى أكبر من سحرة قومه، وقوم عيسى عليه السلام بارعون

في الطب فجاءت معجزة عيسى أكبر وانجح من أدويتهم.

والقرآن يقرر بأن العرب بلغوا مرتبة رفيعة من البلاغة و البيان، وقد صور ذلك في آيات كثيرة

ومنها قوله تعالى { الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان }^٢، وقوله { و إن يقولوا تسمع

لقولهم }^٣، وقوله { ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا }^٤ .

فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث^٥ منها

تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحديا يظهر على

طاقتهم مجتمعين ، بقوله تعالى { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا

يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا }^٦، ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى { أم يقولون

افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم

^٢ .سورة الرحمن ٥٢ : ١-٤.

^٣ .سورة المنافقين ٦٣ : ٤.

^٤ .سورة البقرة ٢ : ٢٠٤.

^٥ .مناع والقطان . مباحث في علوم القرآن. بيروت ، مؤسسة الرسالة. ص ٢٥٩.

^٦ .سورة الإسراء ١٧ : ٨٨.

يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله {^٧، ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله } أم يقولون افتراه

قل فأتوا بسورة مثله {^٨.

ولما نزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ظن العرب أنه من كلام

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن بعد ما عرفوا وسمعوا من الآيات القرآنية عرفوا بأنه ليس من

كلام الإنس والجن وإنه من كلام الله تبارك وتعالى، لأن القرآن ظاهرة لم يسبق لها مثيل في اللسان

العربي وليست آياته مما اخترع به النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول تبارك وتعالى { وما كان هذا

القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب

العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ودعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين {^٩

⁷. سورة هود ١١ : ١٣-١٤.

⁸. سورة يونس ١٠ : ٣٨.

⁹. سورة يونس ١٠ : ٣٧.

قال الجاحظ رحمه الله " بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعرا

وخطيبا ، وأحكم ماكانت لغة، وأشد ماكانت عدة ، فدعا أفصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق

رسالته " .

ومن العرب من زعموا أنهم عارضوا القرآن ، فمنهم من ادعى النبوة وجعل ما يلقيه من ذلك

قرآنا، فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذاب ، تنبأ باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد أن وفد عليه وسلم ، وقد زعم مسيلمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء

ويأتيه ملك من السماء يسمى رحمن، ومن قرآنه الذي جمعه قوله : والمبدرات زرعا، والحاصدات

حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا.

ومنهم أيضا طليحة بن خويلد الأسدي، وكان من أشجع العرب، يعد بألف فارس، قدم على

النبي صلى الله عليه وسلم في وفد أسد بن خزيمه سنة تسع فأسلموا ثم لما رجعوا تنبأ طليحة، وكان

يزعم أن ذا النون يأتيه بالوحي ومن قوله : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أديباركم شيئا ،

فاذكرو الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح.

ونلاحظ من خلال ذلك نستطيع أن نقول بأن القرآن له أسلوب ممتاز لا يماثله شيء من

أساليب العرب ونرى من حسن نظمه وإيجاز في معانيه وتراكيبه ليس كما ما عبره أصحاب الكذاب

والزوار عن معارضته للقرآن مهما هم من أصحاب الفصحاء والبلاغاء ولكنهم عجزوا بإتيان سور

مثله ولا يستطيعون أن يماثلوا أسلوب القرآن في فصاحته وبلاغته، ولذا قد أخذ كثير من الذين

استمعوا إلى القرآن قبل أن يسلموا.

دراسة بلاغية في بعض الآيات القرآنية

قوله **يَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَمِيدُ مَا تَدْرَأُونَ بِاللَّهِ الْمَلِكِ الْحَمِيدِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا**

لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْوَاتُ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)}

نزلت هذه الآية في قتلى بدر، وكانوا بضعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، والسبب أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله " مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها " ،
فأنزل الله هذه الآية ^{١٠}.

ففي هذه الآية الكريمة بين الله سبحانه وتعالى للمسلمين الصبر على شدائد الحرب و عدم القول
والإعتقاد بأن شهداء الكفاح والجهاد الخالص إنهم أموات بل هم أحياء في قبورهم حياة ذات طراز
خاص ومعالم خاص، ويرزقون رزقا على كيفية الله أعلم بها ^{١١}.

وقال الأستاذ الدكتور وهبة الزهيلي : وفيما ذكر إشارة إلى أن المؤمن الذي يضحي بنفسه في سبيل
نصر دينه ودعوة ربه هو من الشهداء الأبرار الذين يظفرون بجنان الخلد، وهم أحياء ، أرواحهم في
حواصل طير خضر، تسرح فيه الجنة حيث شاءت، كما ثبت في الحديث الصحيح ^{١٢}.

التوجيه البلاغي

¹⁰ السيوطي ، جلال الدين ، أسباب النزول ، دار المكتبة ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٢.

¹¹ . أمير عبد العزيز ، التفسير الشامل ، دار السلام ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ج ١ ، ص ٢١٩.

¹² الزهيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، دار الفكر ، لبنان ، ١٩٩٢ ، ج ١ ، ص ١٥٧.

١. إيجاز بالحذف ، و تعريفه ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على

المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه^{١٣} ، وهو في قوله تعالى { بَلْ أَحْيَاءٌ } فقد حذف

المبتدأ وتقديره هم أي بل هم أحياء ذلك لأهمية الخبر لأنهم ما كانوا يتصورون أنهم أحياء

فمند سبحانه هذه البدائية العجيبة تصويرا رشيقاً^{١٤}.

٢. قوله تعالى { أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ } وهو طباق لأن الكلمة أحياء وأموات متضادين في

جملة واحدة.

وقوله تعالى قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَلَا يَكْفُرُونَ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حَتَّى يُقَاتِلُوهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكُفْرَ حِجَابًا فَأُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ (١٩١)

وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ (١٩٢) وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ (١٩٣) وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ (١٩٤) وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ

¹³الصافي ، الجدول في إعراب القرآن ، ج ١ ، ص ٣١١.

(١٩٤) وَأَنْقُتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

(١٩٥)

نزلت هذه الآية في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صد عن البيت ، ونحر هديه بالحديبية ، وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل فرجع ، فلما تجهز في العام المقبل خاف أصحابه ان لا تفي لهم قريش بذلك ، وأن يصدوهم ويقاتلوهم ، وكره أصحابه القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله هذه

الآية { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ }^{١٥}.

وردت هذه الآية في الإذن للقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغيا وعدوانا ، فكان القتال فيها محرما في الجاهلية ، فأوضحت هذه الآية بعدم إخراج في القتال في هذه الأشهر ، دفاعا عن الدين ، وأيضا في هذه الآية نهي الله تعالى عن الإعتداء بقتل الأطفال والنساء ، الشيوخ ، ممن لا قدرة لهم على القتال ، فإن الله تعالى يكره البغي والعدوان أيا كان مصدره^{١٦}.

التوجيه البلاغي

¹⁵ الطبراني ، تفسير الطبراني ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

¹⁶ الزهيلي ، تفسير المنير ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

١. حذف بالإيجاز ، وهو في قوله تعالى { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ }^{١٧} . تقديره هتك حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر^{١٨} .

٢. المشاكلة ، وهي الإتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى ، وهو في قوله تعالى { فَمَنْ أَعَدَّ لِي عَلَيْكُمْ فَاعَةً لَمَّا عَلِيهِ } أي جزاء العدوان عدواناً^{١٩} .

٣. المجاز المرسل ، وهو في قوله تعالى { فَمَنْ أَعَدَّ لِي عَلَيْكُمْ فَاعَةً لَمَّا عَلِيهِ } عبر بقوله فاعدوا عليه ، وهو ليس الإعتداء في الحقيقة وإنما هو العقوبة بلفظ الإعتداء ، لأنه سبب في العقوبة ، فعلاقة هذا المجاز السببية^{٢٠} .

وقوله { كُتِبَ عَلَيْكُمْ } الْقَدَّالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتِلٍ فِيهِ قَاتِلٍ قَاتِلٍ فِيهِ كَيْبَرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْقِتْلَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يُدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَوَقَدْ يَتَدَمَدَمُونَ

¹⁷ الطبراني ، تفسير الطبراني ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

¹⁸ المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

¹⁹ نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

²⁰ الصافي ، الجدول في إعراب القرآن ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِي مَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

إن هذه الآية نزلت في المسلمين حيث قالوا : يا رسول الله أنطمع أن يكون لنا غزوة ؟ فأنزل الله هذه
الآية **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** إلخ { وكانوا ثمانية وأميرهم عبد الله بن جحش^{٢١} ، وإن الآية قد عددت
ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف الثاني هم الذين هاجروا ، والصنف الثالث هم
الذين جاهدوا. إن الذين آمنوا إيماننا خالصا لوجه الله ، وهاجروا لنصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن
تعلوا كلمة الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله^{٢٢} .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن ما فرض عليكم من جهاد عدوكم ، فإن فيه خير لكم في العاجل
والآجل ثم أخبر بأن المشركين لا يزالون جاهدين في فتنة المؤمنين ، حتى يردوهم عن دينهم إن قدروا على
ذلك ، فهم غير نازعين عن كفرهم وإجرامهم ، ومن يستحب لهم منكم فيرجع عن دينه ، فقد بطل
عمله وذهب ثوابه ، وأصبح من المخلدين في نار جهنم ، لأنه استجاب لداعي الضلال.

²¹ السيوطي ، جلالدين بن عبد الرحمن ، الدر المنثور في تفسير المأثور ، ج ١ ، ص ٤٤٩ .

²² الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، أخبار اليوم ، مصر ، ج ٢ ، ص ٩٥٣ .

وقوله { هَاجُوا } الهجرة معناها : الإنتقال من موضع إلى موضع ، وترك الأول لإيثار الثاني،
والهجر ضد الوصل ، والتهاجر : التقاطع ، والمراد بها هنا : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام^{٢٣} ،
وقيل هم الذين خرجوا من مكة إلى المدينة فرارا بدينهم ، مشتق من الهجر وهو الفراق ، وإنما اشتق منه
وزن المفاعلة للدلالة على أنه هجر نشأ عن عداوة من الجانبين فكل من المنتقل والمنتقل عنه قد هجر
الآخر وطلب بعده^{٢٤}.

وقوله { وَجَاهَلُوا } : والمجاهدة إستخراج الجهد ، جهد مجاهدة وجهادا والجهاد والتجاهد : بذل
الوسع ، وقيل : لأنه يضم جهده إلى جهد آخر في نصر الدين مثل المساعدة وهي ضم الرجل ساعده
إلى ساعد آخر للإعانة والقوة ، فالمفاعلة بمعنى الضم والتكرير، وقيل : لأن المجاهد يبذل جهده في قتال
من يبذل جهده كذلك لقتاله فهي مفاعلة حقيقية^{٢٥}.

وقوله { َ يَرْجُونَ } معناه : يطمعون ويستقربون ، والرجاء : الأمل : يقال رجوت فلانا ، وقد
يكون الرجاء بمعنى الخوف كما في قوله تعالى { ما لكم لا ترجون لله وقارا } أي لا تخافون عظمة الله
ويحتمل أن يكون الرجاء بمعنى القطع واليقين ولكن في أصل الثواب ، والظن إنما دخل في كميته وكيفيته

²³ الشوكاني ، فتح القدير ، دار الوفاء ، المنصورة ، ج ١ ، ص ٣٨٦.

²⁴ بن عاشور ، التحرير والتنوير ، دار السحنون للنشر والتوزيع ، ج ٢ ، ص ٣٣٨.

²⁵ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٣٧ ،

وفي وقته ، ويحتمل أن يرد المنافع التي يتوقعونها ، فإن عبد الله بن جحش ما كان قاطعا بالثواب في عمله بل كان يظن ظنا ، وإنما جعل الوعد معلقا بالرجاء ليعلم أن الثواب علما لإيمان والعمل غير واجب^{٢٦} .

وأخرج بن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله { **أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ** } قال : هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل الرجاء ، إنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب^{٢٧} .

التوجيه البلاغي

١ . إيجاز بالحذف ، وهو قوله تعالى { **وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** } أي يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم ، وحذف المفعول هنا للإيجاز.

٢ . الطباق ، وهو في قوله تعالى { **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ** } نلاحظ في هذه الآية توجد كلمة الحب والكره ، وأيضا الخير والشر فهذه كله من جنس الطباق .

٣ . قوله تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنْ** } ((وإن)) المكسورة الهمزة المشددة النون وهذه هي التي تنصب الاسم وترفع الخبر ، ووظيفتها أو فائدتها التأكيد لمضمون الجملة أو الخبر ، فإن في قوله تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنْ** } فإنه ناب مناب تكرير الجملة مرتين

²⁶النيسابوري ، غرائب القرآن، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١ ، ص ٥٩

²⁷الشوكاني ، فتح القدير ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

{ الذين آمنوا...إلخ } , { الذين آمنوا...إلخ } مع حصول الغرض من التأكيد. وهذا

الإيجاز أو الإقتصاد في ألفاظ الجملة يعطيها قيمتها البلاغية ، على أساس أن البلاغة هي

الإيجاز^{٢٨}.

وقوله { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْدٌ بَلْ هُمْ وَتَحْشُرُونَ إِلَيَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢) } كَانَ لَكُمْ آيَةٌ

فِي فَيْئَتِنِ الثَّقَاتِ فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يُوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْوَالِدَ يُؤْتِدُ بِنَصْرِهِ

مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

نزلت هذه الآية في بدر، لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق

بني قينقاع ، وقال يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا ، فقالوا يا محمد ، لا

يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك ، والله لو قاتلتنا

لعرفت أنا نحن الناس ، وإنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله هذه الآية^{٢٩}.

بين الله تعالى في هذه الآية بتهديد وتوعيد الكافرين بالعقاب في الدنيا و الآخرة وأهم مغلبون

ويقاتلون في سبيل الشيطان وأن الله معز دينه وناصر رسوله صلى الله عليه وسلم.

²⁸ الدكتور عبد العزيز عطيق ، علم المعاني ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، ص ٤٤.

²⁹ الإمام الترمذي ، صحيح الترمذي ، كتاب الجهاد ، باب (٢٣) فمن يستشهد وعليه الدين.

قوله **تَعَالَى تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** { هم المسلمون الذين يقاتلون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته، وقوله { **وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَوْمَهُمْ مِثْلِهِمُ رَأْيَ الْعَيْنِ** } واحتمل عود الضمير في يرون إلى المسلم والكافر ، وعلى كل التقديرين يجوز عود الضمير، و { **مِثْلِهِمُ** } أي أن الفئة الكافرة رأَت المسلمین مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين^{٣٠}.

التوجيه البلاغي

١. الإحتمالك وهو الحذف من كلامين متقابلين ، وكل منهما يدل على محذوف من الآخر^{٣١}. وهذا في قوله **تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** { فكل منهما مبتدأ محذوف الخبر، أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان^{٣٢}.
٢. جناس اشتقاق وهو تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف في المعنى^{٣٣}، وهو في قوله { **مِثْلِهِمُ** } و { **رَأْيَ** }^{٣٤}.

³⁰ تفسير غرائب القرآن، ج ٢، ص ١٣١.

³¹ أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، ص ٣٥.

³² الصافي، الجدول في إعراب القرآن، ج ٣، ص ١٥٤.

³³ المراغي، علوم البلاغة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص ٤١٤.

³⁴ الزهيلي، التفسير المنير، ج ٣، ص ١٥٤.

وقوله تعالى يُضْرَبُونَ إِلَّا أَدَّى وَإِنْ يُقَاتِلْوَكُمْ يَوْمَ الْأَدْبَارِ ثُمَّ لَا يَصُونُونَ (١١١)

وفي هذه الآية الكريمة أخبر الله جل وعلى عباده المؤمنين وبشرهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب ، فذكر أن هؤلاء الكافرين الفاسقين لن يلحقوا بكم إلا ضررا بسيطا كالسب والهجاء والتوعد باللسان ومحالة الصد عن دين الله ، والطعن في الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص^{٣٥} .

التوجيه البلاغي

١ . كناية ، وهو في قوله تعالى { يَوْمَ الْأَدْبَارِ } وهي كناية عن الإهزام ، فالمنهزم يحول ظهره إلى عدوه.

٢ . المطابقة المعنوية بين نصر المؤمنين و خذلان الكافرين^{٣٦} .

٣ . الإيضاح وهو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس ثم يوضحه في بقية كلامه^{٣٧} ، لأن في هذه

الآية لو قال الله { لَنْ يَضْرَبَكُمْ } فقط للبس الإحتمال ولكن جاءت الآية بعدها يوضحها.

³⁵ الشوكاني ، تفسير المنير ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

³⁶ الصافي ، الجدول في إعراب القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

³⁷ معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢١٥ .

وقوله { وَإِذْ غَلَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) } إِذْ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلُوا وَاللَّهُ وَلِيٌّ لِيُفِيهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٢٢) } وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) } إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِ الْآفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) } بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِمِائَةِ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفِ الْآفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوْسِمِينَ (٢٥) } وَاللَّهُ إِلَّا بِشَرِّ لَكُمْ وَلَا تَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)

لقد بين الله تبارك وتعالى لأمة محمد صلى الله عليه السلام بأن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد إنما في طاعته وتوكله ، ولذا لما كان المسلمون توكلوا عليه وامتثلوا أوامره وأوامر نبيه ، وكانوا قليل العدد ، إذ كانوا نحو ثلاث مائة والكفر نحو ألف ، وليس معهم سوى فرسين ، ومع المشركين الخيول والدروع والفرسان والأبطال.

وقوله تعالى { ولقد نصركم الله ببدر } لقد كانت وقعت أحد لم تنكشف عن نصر المسلمين ، عقب الله ذكرها ، بأن ذكرهم الله تعالى نصره إياهم ، النصر الذي قدره لهم يوم بدر ، وهم نصر عظيم ، إذا كان نصر فئة قليلة على جيش كثير ، ذي عدد وافرة ، وكان قتلى المشركين يومئذ سادة قريش ، وأئمة الشرك كمثل أبي جهل ابن هشام^{٣٨}.

³⁸ ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص ٧٢.

وقوله { وأنتم أذلة } قلة وما ذاك إلا أن جيوش المسلمين قتلها متمسكة بدينها مطيعة لرسولها وقائدها ما لم يكن لهم إعتقاد إلا على الله وحده ، ثم لما ذكرهم الله بتلك المنة العظيمة ذكرهم بأنها سبب للشكر لأمرهم بملازمة التقوى.

التوجيه البلاغي

١. قوله تعالى { إذ تقول للمؤمنين } أتى بالمضارع لحكاية لماضي بطريق استحضار الصورة في الذهن^{٣٩}.

٢. كناية ، وهي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه^{٤٠} ، وهو في قوله تعالى { و أنتم أذلة } الكلام كناية عن قلة عددهم وعدتهم وما كان بهم من ضعف الحال ، وذلك على أنهم خرجوا على النواضح يعتقب منهم النفر على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا فرس واحد.

٣. الاستفهام الإنكاري ، وهو في قوله تعالى { ألن يكفيكم } الهمة هنا للاستفهام الاستنكاري حيث احوالت النفي إلى إيجاب^{٤١}.

³⁹الزهيلى ، التفسير المنير ، ج٣، ص ١١٢.

⁴⁰الخطيب القزويني ، التلخيص في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص٨.

⁴¹الصافي ، إعراب القرآن ، ج٢، ص ٥٠.

٤ . كناية ، وهو في قوله تعالى { من الملائكة مسومين } ووصف الملائكة بذلك كناية على

كونهم شدادا^{٤٢}

وقوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ (١٤٢) } وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا بِهَا مَوْجِدًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُنُوتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُنُوتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُوَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٤٧) فَأَيُّهَا هُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

⁴²ابن عاشور ، التبرير والتنوير ، ج٣ ، ص ٧٦ .

أخرج بن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبي إسحاق {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة} وتصيبوا من ثوابي الكرامة وابتليكم بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم بالشدة والإيمان بي والصبر على ما أصابكم .^{٤٣}

ويقول سيد فطب رحمه الله : " إن صيغة السؤال الإستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذه التصور : تصور أنه لا يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان : أسلمت وأنا على استعداد للموت ، فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان ، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان "^{٤٤} .

ولقد بين الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن دخول الجنة الذي هو مرغوبهم لا يحصل إذا لم يبذلوا نفوسهم في نصر الدين ، فإذا حسبوا دخول الجنة يحصل دون ذلك ، فقد أخطأوا.

التوجيه البلاغي

١ . وقوله تعالى { أم } منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار^{٤٥} . ويقصد بهذه الآية إنكار على

من يظن أن دخول الجنة يكون بلا جهاد وصبر .

٢ . الكناية وهي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه^{٤٦} ، وهو في قوله تعالى { أم

حسبتم ... إلخ } ، لأن في هذه الآية نفي علم الله بالذين جاهدوا والصابرين الكناية عن

⁴³السيوطي ، الدر المنثور في المأثور ، ح ٢ ، ص ١٤٢ .

⁴⁴ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، القاهرة ، دار الشروق ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .

⁴⁵ الزمخشري ، الكشاف ، ط ١٤١٧ هـ بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

حالة نفي الجهاد والصبر عنهم ، لأن الله إذا علم شيئاً فذلك المعلوم محقق الوقوع فكما كنى بعلم الله عن التحقق في قوله { وليعلم الذين آمنوا } كنى بنفي العلم عن نفي الوقوع. وشرط الكناية هنا متوفر وهو جواز إيراد للمعنى الملزوم مع معنى اللازم لجواز إرادة انتفاء علم الله بجهادهم مع إرادة انتفاع جهادهم^{٤٧}.

٣. **قصر موصوف على الصفة** ، و تعريفه تخصيص شيء بشيء أو تخصيص امر بآخر بطريق مخصوص^{٤٨} هو في قوله تعالى { وما محمد إلا رسول } ، بيت في هذه الآية أن محمدا رسول الله وما هو إلا كسائر الرسل.

٤. **إستعارة**، وهم قوله تعالى { إنقلبتم على أعقابكم } ، شبه الرجوع عن الدين بالرجوع علماً لأعقاب.

⁴⁶الدكتور عبد العزيز عتيق ، علم البيان ، دار الأفاق العربية ، ص ١٥٢.

⁴⁷ ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص ١٠٥.

الخاتمة

أن البلاغة ليست علما جديدا ، إذ أن البلاغة كانت موجودة منذ قدم العرب ، ومما يؤيد ذلك أن العرب هم أصحاب الفصحاء والبلغاء كما وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم { ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام } ولكن لما اختلط العرب بالأعاجم صار البلاغة يحتاج إلى التدوين وهو في العصر العباسي علي يدي الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي يعتبر مؤسساً في علم البلاغة.

حقيقة إن حلاوة تذوق أسلوب الآيات القرآنية متوقف على فهم البلاغة ، إذ لا يمكن لأي شخص ما أن يتذوق بجمال أسلوب القرآن ، وفصاحته إلا بفهم علم البلاغة ولذا يقول الزمخشري رحمه الله

تعالى " ما من فقيه ، ولا متكلم ، ولا لغوي ، ولا نحوي ، ولا حافظ أو واعد ، أيا كان مبلغه عن علمه

، يستطيع أن يتصدى لتفسير القرآن ، ما لم يبرع بعلمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني والبيان " .

المراجع

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري/، معجم تهذيب اللغة، ٢٠٠١، بيروت : دار القلم.

عمرو بن عبيد المعتزلي، البيان والبيان، ١٩٦٨، القاهرة : دار النهضة.

الحسن بن محمد بن مفضل الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، القاهرة: دار النهضة.

فضل الحسن بن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ٢٠٠٠، دار الفرقان.

عبد الرحمن حسن الميداني، البلاغة العربية ، ١٩٩٨، دمشق : در القلم.

شوقي الضيف، البلاغة فنونها وأفنانها، ٢٠٠٠، عمان : دار الفرقان.

عبد القادر حسن، فن البلاغة، ١٩٨٤، مصر : عالم الكتب.

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٩٩٢، دمشق : دار القلم.

السيوطي، لباب القول في أسباب النزول، ١٩٩٩، القاهرة : دار المكتبة.

محمد طاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٩٨، تونس : در السحنون.